



عبد العزيز المسلم المسافر المفتون بحب المدن

د. أمني محمد ناصر
كاتبة - سوريا

يُطلق مفهوم أدب الرحلات على ذلك النوع من الفنون الأدبية، الذي يهتم بالانطباعات الصادرة عن المؤلف، من خلال ما يقوم به من رحلات إلى البلدان على اختلاف الغايات التي حدثت من أجلها هذه الزيارات، ويترك هذا الفن من الفنون الأدبية لدى القارئ انطباعاً عن الآثار التي يحتوي عليها المكان الذي تتم زيارته، من خلال توثيق ذلك في النص الأدبي، لينتج ما يعرف بالآثار الأدبية.

كما يصف الكاتب في مؤلفات هذا النوع من الفنون الأدبية، ما تقع عليه عينه من تصرفات الناس وعاداتهم وما هم عليه من سلوكيات في التعامل مع من يقابلهم، كما يأتي على ذكر الأحوال المعيشية والأنماط الاجتماعية والاقتصادية للبلدان التي تتم زيارتها، كما كان لأدب الرحلات دور مهم في الدراسات التاريخية المقارنة⁽¹⁾. عرّفت الموسوعة العربية العالمية: «بأن أدب الرحلة هو الذي يصوّر فيه الكاتب ما جرى له من أحداث، وما

وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق⁽⁴⁾.

«أدب الرحلات هو ما يمكن أن يوصف بأدب الرحلة الواقعية، وهي الرحلة التي يقوم بها رحالة إلى بلد من بلدان العالم، ويدون وصفاً له، ويسجل فيه مشاهداته، وانطباعاته بدرجة من الدقة والصدق وجمال الأسلوب والقدرة على التعب⁽⁵⁾».

صادفه من أمور أثناء رحلة قام بها لأحد البلاد⁽²⁾.
والرحلة لغة: رَحَلَ يَرَحُل، رَحِيلاً وَتَرَحَّالاً وَرَحْلاً.

و«الرَّحْلَةُ بِالضَّمِّ والكسر، يُقَالُ: إِنَّهُ لَذُو رَحْلَةٍ إِلَى الْمُلُوكِ وَرُحْلَةٍ حَكَاهُ اللَّحْيَانِيُّ أَيِ ارْتِحَالٍ، وَالرَّحْلَةُ بِالْكَسْرِ: الْارْتِحَالُ لِلْمَسِيرِ⁽³⁾».

واصطلاحاً: «أدب الرحلات، مجموعة الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة،



الأسلوب والمستوى الفني

الأسلوب الذي اتبعه الدكتور عبدالعزيز المسلّم في «مدوّنة مسافر» كان أسلوب الوصف، فقد غاص في بعض التفاصيل التي تجعلك تشعر كأنك موجود في هذا البلد الذي يتحدث عنه المؤلّف وتظهر في كل الاتجاهات الثقافية والأدبية والسياحية والجغرافية فيها، وتتعرف إلى تراثها وثقافتها...

اختار المؤلّف لوناً أدبياً خاصاً به، مستخدماً أسلوب السرد الذي تماشى مع غايته من كلّ رحلة قام بها، ومستخدماً أيضاً أسلوب الملاحظة في تسجيل أهم ما مرّ به في كل رحلة. فمنها وصف لجغرافية البلد وطبيعتها، ومنها لعادات البلاد التي زارها، وللثقافة التي تتميز بها كل دولة، وتسجيل ملاحظات حول تراث كل بلد ولغته وأصاليته وأدبه وفنّه وإنسانيته وأخلاقه وانتمائه لوطنه.

وألقى المؤلّف الضوء على بعض الأماكن بطريقة السيرة الذاتية والرصد، حيث رصد كل مكان زاره، ما أعطى قيمة أدبية وقيمة علمية للكتاب.

ومن أجمل ما قرأته في هذه المدوّنة ما جاء في مقدمتها:

«هناك مدن تريح القلب وتهدأ على عتباتها الروح، فعندما تحلّ في مدينة ما داخل دولتك أو خارجها، تدهمك أحاسيس خاصة بكل مدينة، فهناك مدن ينبض فيها قلبك وتثور روحك غصباً، طالبة رحيلك منها، ومدن يهدأ القلب فيها وترتاح الروح طالبة البقاء فيها لأوقات أطول».

دوافع الرحلات في «مدونة مسافر»

ما يميز هذا الكتاب هو التنوّع في هدف كل رحلة، ومن أهداف الرحلات التي قام بها المؤلّف، الاكتشاف، السياحة، تقديم خبرته الثقافية والتراثية والمعرفية للبلدان التي زارها والإفادة من الخبرات الثقافية والتراثية والمعرفية لهذه البلدان؛ أي تبادل الخبرات، والكتاب كان فرصة لاكتشاف البلدان التي لا نعرف عنها إلا اليسير، ومع كل رحلة كتب عنها المؤلّف نجد دافعاً جديداً، فمثلاً مدينة نور سلطان في جمهورية كازاخستان، كان الدافع إلقاء الضوء على ثقافة بلده وتراثها وفنونها واقتصادها:

«وكان مقررّاً للزيارة أن تقدّم بعض الإضاءات المشرقة لبلادنا في الخارج، وقد كنتُ أحد أقطاب تلك الزيارة مع نخبة طيبة من أبناء الإمارات، جاؤوا من جميع أنحاء الدولة تقريباً، ليقدّموا الوجه المشرق لدولتنا الحبيبة من (الثقافة والتراث والفنون والحرف التقليدية والاقتصاد والتجارة، كما جاؤوا لإحياء ذكرى يوم الشهيد واليوم الوطني)».

القيمة الفنية والأسلوب الأدبي:

وأنت تقرأ الكتاب تحتار كيف كتبت، فاللغة الشعرية تطفئ في بعض الجوانب، ما جعلني أبحث في الشبكة العنكبوتية عن السيرة الذاتية الكاملة للمؤلّف لأكتشف أنه بدأ كتاباته كشاعر، إضافة إلى اللغة النثرية المميزة والأسلوب القصصي المحكم بعناية، كما في وصفه رحلته إلى «بيت الإوز» في أمريكا.

«في عام 1995 كانت زيارتي الأولى للولايات المتحدة الأمريكية، كانت تلك الرحلة بين شهري إبريل ومايو، وكنتُ حديث التجربة قليل المعرفة بما عليه أنا الآن، وكانت الرحلة لرحلة عمل، لكنّ الشغف والشوق كان

فضل مصر على الثقافة العربية، وعلى العلم ومسيرة الفن كلها، وختم حديثه عنها بهذا التساؤل المغمور بالمحبة:

«بحق، لا يمكن إحصاء عدد اللحظات الجميلة في مصر، فكل التفاصيل وكل اللحظات، لا يمكن وصفها إلا بالحسن، وكل التفاصيل هي من فسيفساء الجمال الحقيقي، فكيف لا نحب مصر؟».

وظائف أدب الرحلات في مدونة مسافر:

لأدب الرحلات وظيفتان: وظيفة معرفية، ووظيفة أخلاقية، وأضاف إليها الكاتب عن طريق تسجيله الملاحظات حول كل دولة زارها وظيفة ثالثة هي الوظيفة الوصفية...».

الوظيفة المعرفية:

الوظيفة المعرفية في أدب الرحلات تعني إعطاء معلومات عن الأماكن التي زارها الرحالة وثقافة الشعوب، وعاداتهم، وعن جغرافية الأماكن وتراثها وتاريخها ومعارفها وعلومها وآدابها، ما يقدم للقارئ إفادة علمية وثقافية وأدبية.

في مدونة مسافر نقرأ عن ذلك، فعلى سبيل المثال جاء في موضوعه عن «تلك التلة فوكيت»

«التلة أو فوكيت، هي عروس جزر مملكة تايلاند، تقع في الجنوب على بحر أندامان، وكانت تسمى جونكسيلون، وتاريخياً كانت جونكسيلون مركزاً مهماً للتجارة، وتبلغ مساحتها 570 كيلومتراً مربعاً، وتشكل الجبال 70% من مساحة الجزيرة».

كما نقرأ في الكتاب وصفاً لثقافة الشعوب والمكتبات التي زارها المؤلف والمهرجانات والندوات والمؤتمرات

كبيراً لزيارة إلى العالم الجديد. الرحلات الجوية في تلك الفترة لم تكن بهذا اليسر، سافرت من دبي إلى لندن على متن الخطوط الجوية الكويتية، ومن لندن... إلخ». ثم تجد نفسك أمام أسلوب السيرة الذاتية كما في حديثه عن مصر:

«لقد فرحت كثيراً بزواجي عام 1993، وقد قسمت شهر العسل إلى قسمين، أسبوع في خورفكان، وثلاثة أسابيع في مصر، وكانت أياماً رائعة تمسينا فيها على كورنيش النيل، وزرنا المتحف المصري في ميدان التحرير، وأماكن عديدة مثل الأهرامات وخان الخليلي والحسين، وخلال تلك الزيارة كونا عدداً من الصداقات التي لاتزال حتى اليوم».

تساؤلات تغلفها المحبة

الشعور بالمحبة كان يغلف كل الرحلات التي قام بها للبلدان والدول، تساءل الكاتب فيها أسئلة عدة، معبراً عن هذه المحبة، فعلى سبيل المثال، بدأ حديثه عن الكويت ومصر بوصف محبته لهما متسائلاً:

لماذا نحب الكويت؟

كيف لا نحب مصر؟

وأجاب عن هذا السؤالين: «نحب الكويت لأنها سكنت في الذاكرة، ورسمت ملامح حب لا يَبلى، وتراث لا يفنى، فالكويت في ذكريات الطفولة، وفي ذكريات الدراسة، وهي في ألف باء الثقافة والفن، فكيف لا نحب الكويت؟».

ثم تابع حديثه عن ثقافتها وتمدينها وعلمها وتحضرها وثقافتنا العربية الأولى التي ارتبطت بالكويت ارتباطاً وثيقاً.

أما في مصر، فبدأ الحديث عن ثقافتها أولاً، ذاكرةً

الوطن الذي نخاطبه بلغته ويخاطبنا باللغة نفسها التي ارتضاها لنا، وارتضيهاها لأنفسنا حباً به».

الوظيفة الوصفية

في إطار تعريف الوصف والسرد، فإنّ التعريف الاصطلاحي للوصف أنه بمثابة استراحة يقتضي فيه عادةً انقطاع السيرورة الزمنية، وتعطل حركتها، وهذه الاستراحة بالوصف يُحدثها الراوي أثناء سرد الحكّي، أما الحكّي فيقوم الحكّي عامة على أساسين، فالأساس الأول هو أن يحتوي على قصة ما تضمّ أحداثاً معيّنة، أمّا الأساس الثاني فهو إعانة الطريقة التي تُحكى بها هذه الأحداث، وتُسمى الطريقة سرداً، والقصة الواحدة يمكن أن تُحكى بطرق متعددة، والسرد هو الذي يعتمد عليه في تمييز أنماط الحكّي تلك.⁽⁶⁾

في أغلب كتب أدب الرحلات نجد الوصف فيها، لكن أن يوظّف الوصف من بداية الكتاب وحتى نهايته مرة

الثقافية التي حضرها، وكلّ جديد اكتشفه فيها، إضافة إلى الإفادة الثقافية والتراثية التي قدّمها لهذه البلدان والإفادة التي نالها من هذه الزيارات.

«إنّ بلاد القوقاز حُسن وثقافة وتاريخ لا بدّ أن يُكتشف».

الوظيفة الأخلاقية:

الوظيفة الأخلاقية في أدب الرحلات هي «إبداء مواقف من أنماط السلوك»، وجاء حديث المؤلف عن أنماط سلوك الشعوب وحسّهم الوطني، وتمسك بعض الشعوب بلغتهم الأصلية، فنقلها الكاتب إلينا بكلّ أمانة، كما جاء في حديثه عن «البرازيل وطن الأحلام».

«الملاحظة المهمة التي أرى أنها لبّ الوهج البرازيلي، هي أنّ البرازيليين على الرغم من تعدّد أعراقهم وألوانهم ودياناتهم وأهوائهم واتجاهاتهم، جمعتهم اللغة، وأضع تحت اللغة مليون خط، فاللغة التي تحوي المشاعر والمعاني الجميلة، والعلم والحكمة هي الوطن،



وجداني عميق وراحة روح قلماً تجد لها مثيلاً، فهي مدينة هادئة ولطيفة، تشم في هوائها رائحة النخيل، ويلامس شغاف قلبك لطف أهلها وترحابهم الدائم. أما المدينة الإماراتية الأخرى، فهي خورفكان التي كان لطفولتي نصيب منها، فهي مدينة لا تجلب إلا المودة، تسكن فيها الروح وتأتلف القلوب، ولها أكبر نصيب من نسيمات بحر العرب، وزئير الأشربة، وخيرات البحر».

وفي وصف إحدى المدن التي زارها يقول المؤلف:

«مدينة هلسنكي في فنلندا هي أيضاً من المدن التي يحتويها الشوق لها، فهي مدينة آسرة بهدوئها وروعة تنظيمها واعتنائها المدلل بتراتها الثقافى وذاكرتها الشعبية».

أما خاتمة الكتاب فكانت بالحديث عن «شوارع لا تتسى»، منها شارع العروبة من أشهر الشوارع في مدينة «الشارقة» الإماراتية وشارع «أبوفيان» في جمهورية أرمينيا، وشارع «محمد علي» في جمهورية مصر، وشارع «المتنبى» في بغداد وشارع «إم جي» في الهند.. إلخ.

الكتاب يُعتبر شاهداً معرفياً وثقافياً، وهو من أهم المصادر الجغرافية والتاريخية والاجتماعية، صادر عن دار كلمن للنشر عام 2021، الشارقة، من القطع المتوسط ويقع في 173 صفحة.

بطريقة الحكاية ومرة بطريقة السرد ومرة بطريقة السيرة الذاتية، فهذا ما يجذب القارئ لقراءة المحتوى بجلسة واحدة، فالعناوين المميزة والوصف السلس والدقيق لكل بلد تمت زيارته بما لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة من الصفحات، حقيقة يسجل للكاتب.

قام المؤلف بوصف دقيق لكل بلد زارها، بطريقة الوصف كما أشرت سابقاً وطريقة السرد، وجاء بعضها بطريقة الحكاية التي كانت بضمير المتكلم (أنا، نحن)، ولم يتبع أسلوب الحوار في كتابه كما نجد في بعض كتب أدب الرحلات.

حينما تبدأ بقراءة «مدونة مسافر» لا يمكن أن تفعل شيئاً قبل إنهاء هذا الكتاب الذي ينقلك من بلد إلى آخر، وأنت جالس في مكانك، فمن يريد ثقافة عن البلدان، سيجدها في هذا الكتاب، ومن يريد استراحة من عناء العمل فسيجد استراحته في هذا الكتاب، ومن يريد السفر إلى بلد ما ومحتار في اختياراته سيكون هذا الكتاب عوناً له في اختيار البلد الأنسب له؛ لأنه سيجد وصفاً دقيقاً لكل ما ترنو له نفسه من استراحة أو ثقافة أو سياحة.

ومما جاء في وصفه لوطنه الإمارات:

«في الإمارات العربية المتحدة مدينتان فيهما حب وشوق فريد، هما مدينة العين التي لها تأثير

1 . <https://www.marefa.org> / أدب الرحلات.

2 . الموسوعة العربية العالمية، 136/11.

3 . المرتضى، الزبيدي (المتوفى: 1205هـ)، تاج العروس، المحقق: مجموعة من المحققين، دار الهداية - الرياض، 2010م، 61/29. (ر ح ل).

4 . إميل يعقوب وبسام بركة ومي شيجاني، قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية: عربي - إنجليزي - فرنسي، دار العلم للملايين - لبنان، ط: 1، 1997 م، ص: 25.

5 . إنجيل بطرس، الرحلات في الأدب الإنجليزي، مجلة الهلال - مصر، العدد 7، 1975م، ص: 52.

6 . حميد لحمداني (1991)، بنية النص السردى (الطبعة الأولى)، بيروت: المركز الثقافى العربى للطباعة والنشر والتوزيع، صفحة 45-76.